إلا أنّ دور هذه المذكّرات وأثرها ليسا محدودين بالدلالات المذكورة. فهي تَطْرح كذلك، من خلال علاقتها بالخطاب السرديّ، جملةً من المسائل لعلّ أهمّها ذلك الدورُ الإخباريّ الذي تشغله والأثرُ القصصيّ الذي يَنْتج عنه. والملاحَظُ في هذا الصدد أنّ «مذكرات» الطالب لا تَنْقل أحداثاً ولا تحمل تأمُّلات. وهي، على الرغم من اعتمادها كلمات مستقلة مبعثرة، تشير إلى هواجس الطالب وتومئ إلى الهيمنة التي تفرضها أمُه على شخصيّته. حتى إنّ اسمها يتردّد أكثر من أيّ كلمة أخرى، بل هي لا تكتفي بحصار هذه الشخصيّة كما يدلُّ حصرُ اسمها للمقطع في تطويقه بدءاً وخاتمة، وإنّما تؤدّي في حضورها دوراً باتراً كما يوحي بذلك قطعُ اسمها لاسم العلم الأجنبيّ (الفرنسيّ) الوارد في المقطع (ص ١٠٦). ولا يَخْفى ما لهذا الدور من صلة بالدور الذي تؤدّيه في العلاقة التي تقوم بين ابنها وجانين الفتاةِ الأجنبيةِ (الفرنسيّة).

في المقابل تبدو مذكراتُ جانين في قسمها الأول رازحةً تحت وطأة النشوة والغرام. فهي إذ تَذْكر بعضَ الوقائع والمواقف المعروفة تمضي في تأمُّلها إلى قرارات لا تتّفق مع المنطلقات، وبخاصة مع موقف الطالب منها، وإلى استشراف أوضاع لا تتّفق مع إمكانيّاتها وطاقاتها. هناك خطأ في الرؤية والتقدير، وهناك انطماس الوعي عن الإحاطة بالموقف بشكل صحيح. ولعلّ في قراءتها خلسةً، وإسرار ذلك، وخصوصاً في عدم أخذ مضمونها بعين الاعتبار في ما يلي من مواقف، إشارةً إلى ذلك الخطإ وهذا الانطماس، وخصوصاً إلى ما ينتج عنهما من أوضاع فاجعة.

أما القسم الثاني من المذكرات فيَغْلب عليه طابعُ ذكر الأحداث التي يأتي بعضُها مؤكّداً لما ذُكر خارجها (رسالة فؤاد إلى الطالب)، وبعضُها الآخر كاشفاً لما لم يُتَحْ للطالب أن يعرفه ولم يُذْكر في النصّ الروائيّ من قبل (الضائقة الاقتصاديّة التي تعانيها جانين إلى حدّ الجوع الصارخ...). إنّه بذلك يُثْبت وقائع ويسدّ فجوة في بناء العمل الروائيّ واستواء هيكله أو اتساقه. ولا يتيح تكرارُ ذكر بعض الوقائع التثبّتَ منها وحسب، وإنّما كذلك مقابلة الأخبار بعضها ببعض أو مقارنة الروايات المختلفة للخبر الواحد لاستخلاص

صار هو الرواية

بقلم إلياس خوري*

في الدعوة إلى هذا اللقاء، وردتْ كلمتان أريد التوقُّف عندهما في البداية. الكلمة الأولى هي «التكريم»، والكلمة الثانية هي «الرموز». والحقيقة أنّني ترددتُ طويلاً أمامهما؛ فأنا لا أعتقد أنّ الثقافة تحتاج إلى تكريم، كما أنّني لا أعتقد أنّ المثقف يمكن أن يُختزل إلى رمز.

الثقافة لا «تكرَّم» لأنّها هي مَنْ يكرِّم. فالثقافة ليس متحفاً يمكن العودةُ إليه بعد فصله عن الحياة. والكتابةُ في شكل خاصٍّ لم تجد لنفسها شكلاً متحفيّاً إلاّ في القواميس، حيث توضع الكلماتُ الميْتة إلى جانب الكلمات الحيّة. أمّا النصوص الأدبيّة فكانت عصيّةً في شكل دائم على المتحفة: فهي إمّا أن تحيا في الأحياء، وبذلك تصبح أداةً لمخاطبة الأحياء والموتى في آن معاً، وإمّا أن تموت وتندثر. ولنا في الأدب العربيّ القديم، وفي آداب اللُّغات الأخرى، أمثلةٌ على النصوص الحيّة التي انتصرت على الموت، وتحوّلتْ مرجعاً روحيّاً للأحياء، وعَبَرتْ من لغتها إلى لغات أخرى، دون أن يَنتقص الزمنُ أو العبورُ شيئاً من قوّتها وحيويّتها وقدرتها على المخاطبة. أمّا «الرمز»، فذلك قضية أخرى، وكلمةٌ تثير فيّ الحيرة، خصوصاً وأنّنا نعيش في زمن تتحطّم فيه الرموزُ وتتلاشى، وتَفقد قدرتَها على الإيحاء. الرمز أيضاً قد يتداخل مع الفكرة المتحفيّة عن التكريم، فتكون رموزُنا مجردَ آثارٍ نلجأ إليها من أجل أن نعبّئ فراغ الحاضر بفراغ الماضي.

لذلك أستميحكم عذراً، وأنا في صدد التكلّم عن سهيل إدريس، في تجاوز هاتَيْن الكلمتَيْن، من أجل أن أحاول الوصول الى اكتناه جزء من حقيقة المثقف التي جسّدها هذا الأديبُ والناقدُ والروائيُّ والمحرِّرُ الأدبيُّ والمحرِّكُ الثقافيّ، خلال نصف قرن من الإنتاج والعمل والرعاية والحب.

يبدو سهيل إدريس بالنسبة إليَّ أديباً ناقصاً. فقد كتب الروايةَ وتوقَّف عند عمله الروائيّ الثالث، وكتب القصة القصيرة ولم يتابع، وكتب المسرحية دون أن يصبح كاتباً مسرحياً، وألَّف القواميس دون أن يصبح قاموسيّاً.

أُحب أن أعود دائماً إلى روايتَيْه **الحيّ اللاتينيّ** و**الخندق الغميق** كي أستعيد رائحةَ بيروت التي تكاد تختفي تحت روائح الكذب والهزائم والانحطاط. وأحب العودة الى مجلة الآداب، التي تَسْمح لي بأن أقرأ أجيالَ الطليعة العربيّة وهي تحاول خروجاً من نفق الهزيمة وتَرْسم أفقاً للحريّة لا يزال ينتظر قَوْسَه. وأحب مقالاته ـ مواقفَه، التي لخصَّ فيها التباسات بداياتنا بين القوميّة والماركسيّة والوجوديّة، والتي تَنْبض بالعروبة التي تعني أكثر من هوية قوميّة: إنّها عروبةُ المعنى الجديد الذي تحاول الطليعةُ العربيّةُ صناعتَه، لا عروبة العودة إلى الماضي والبحث عن إحياء الميْت وبعثه.

بين بطلَيْ **الحيّ اللاتينيّ** و**الخندق الغميق**، وهما بطل واحد، عرفتُ وعيي البيروتيّ الأوّل. قَبْلهما لم تكن بيروتُ حكايةً، ومعهما وُلدت الحكايةُ التي سوف تَكْبر فيما بعد وتتخذ لنفسها أسماء مختلفةً، وتتوالد إلى ما لا نهاية.

---

* ـ كلمةٌ ألقاها الروائيّ والناقد اللبنانيّ في حفلٍ أقامه منذ أيام المنتدى القوميّ العربيّ في بيروت «تكريماً لرموز ثقافيّة عربيّة».

ومرةً سألتُه: لماذا توقّف عن كتابة الروايات، ومرةً جاوبني متذرّعاً بانشغالات عديدة. لكنّني لم أصدّقه؛ فأنا أعتقد أنّ الكاتب لم يتوقّف عن كتابة رواياته، لكنّه صار هو الرواية. وهنا تصبح الحكاية: كيف نعيش الأدب، لا كيف نكتبه فقط.

هنا، أيها السيدات والسادة، أريد أن نكتشف معاً دلالةَ أن يعيشَ الكاتبُ الكتابةَ ويمتزجَ بها. فهذا هو ما يُنتج في رأيي وضعيةَ المثقف، أيّ وضعيةَ صاحب الموقف الذي لا ينحني ولا يتراجع، ويَجْعل من علاقته بالحقيقة شهادتَه اليوميّةَ الدائمة.

وكما تعرفون ونعرف، فإنّ المثقف العربيّ يمرّ اليومَ في محنة كبرى، وهي نتيجةٌ لاجتماع عاملَيْن: وهْم الانقلاب الذي جَعَلَ بعضَ المثقفين يتخلّون عن أدوارهم، وقمع السلطة الذي حاول خَصْيَ الثقافة العربيّة وقتلَ روحها وتشويهها.

واذا كانت بيروت قد استطاعت في الماضي أن تسمح لبعض مثقفيها بهامش من الحريّة التي صنعوها بأيديهم، وأنْ تستقبلَ أيضاً مثقفين عرباً التجأوا إليها من أجل أن يحافظوا على كرامة الكلمة على أقلامهم، فإنّها اليوم تواجه خَطَرَ أنْ يتمّ إخضاعُها للقمع العربيّ الزاحف، الذي يشوّه مفهومَ العروبة ويُفْرغه من معناه، مُخْضعاً الثقافةَ اللبنانيّةَ لحالٍ من الارتباك والتلعثم والقمع المُعْلَن والخفيّ، وصولاً إلى جرأة الجَهل على الثقافة، وتمادي الرقابة من البريد إلى العروض الفنيّة.

في هذه اللّحظات الصعبة، شكّل هذا الرجلُ نموذجاً لنا لا رمزاً. نخوضُ معاركنا، فنراه في مقدّمتنا، يذود عن الحريّة لأنّه ابنُ الحرية، ويُدافع عن الفكرة العربيّة لأنّه ابنُ العروبة المنفتحة الحرة المتعدّدة، التي لا تنحني للزمن الإسرائيليّ الأميركيّ، ولا تخْضع لمماليك الهزيمة العربيّة.

عن المثقف، أيّ عن الكتابة التي امتزجتْ بكاتبها وصارَتْه، أريد أن أحدّثكم. فالمثقف البعيد عن السلطة، الرافضُ لإغراءاتها، المتمرّدُ على قمعها، الذي يَحْتقر سياسةَ السياسيّين وألاعيبَ الدَّجل التي تبرّر وتماحك وتَقْبل وتُفَلْسف، ثم لا تكون إلاّ شكلاً لقبول هزيمة الشعب أمامَ السلطان، وشكَلاً لانهيارِ المعنى أمام المبنى السلطويّ الذي يصوغه المُخْبِرون والسفهاءُ...

المثقف، هو ما نَبْحث عنه، مثقفٌ يحمل موقفاً، وكاتبٌ يدافع عن قيم الحرية والعدالة، وعربيٌ يبني العروبة ـ عروبةَ المقاومة والبحث والأسئلة والانتماء.

وبهذا المعنى، فإنّ سهيل إدريس لا يستحقّ التكريم لأنّه ليس رمزاً. إنّه معنا، في الدفاع عن قيم الديموقراطية والعدالة والحريّة. إنّه هنا، في لبنان، وفي كل بلاد العرب، يقول للقمع والاستسلام والديكتاتورية إنّ الثقافة لا تزال قادرةً على أن تَصْنع إرادةَ المقاومة في هذه الأرض التي لن تَخْضع لمماليك الانحطاط لأنّها لن تَخْضع لأسياد هذا الزمن المنقلب.

بيروت

أنماط رؤية أو وجهات نظر مختلفة انطلاقاً منها. وفي ما يتعدّى بعضَ الإشكالات المتعلقة بتاريخ بعض الأحداث[1] تفضي هذه المقارنةُ إلى تماثل، إنْ لم يكن إلى تطابق، في الرؤية والأحكام، بما يؤكّد الصورةَ الخاصةَ بالشخصيّات المعنيّة هنا (جانين في صدقها وإخلاصها، وفؤاد في نبله وصراحته). ومن جهة أخرى لا تقوم الإضافاتُ الخبرية هنا بسدّ ثغرات النقص الذي يعتور سيرورةَ القصص وتحوّلات أوضاعه وحسب، وإنّما أيضاً بفضح الوجه الخفيّ واستحضار ما يغيب عن وعي الذات في علاقتها بالآخرين. فباريس، على ما تكشفه هذه المذكرات، ليست مدينةَ الدراسة والغرام فقط، وإنّما هي مدينةُ البطالة والجوع أيضاً. بل إنّ هذا الجوع هو الوجه الآخر للغرام، ذلك الوجه الذي يتفادى الطالبُ النظرَ إليه، ويعجز إذ يفعل عن إدراك أبعاده ومخاطره، قبل أن يبلغ ذلك في مرحلة النضج والاكتمال. فالفتاة «الضائعة» هي الفتاة الجائعة إلى الحب أو الرغيف كما تلمّح جانين إلى ذلك (ص ١٩٦) وكما تؤكّده في مذكّراتها (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٧). بيد أنّ الذات التي ترتبط بها غرامياً مماثلة لها بقدر ما يشكّل الكبتُ والحرمانُ الوجهَ الخفيَّ والمطموسَ في اندفاعها نحوها. وهو الوجه الذي تحاول الذات إنكاره في رفضها الشفقة والرثاء اللذَيْن يستدعيهما. فتقْصر عن وعي التماثل القائم بين الوضعين كما يبين ذلك في تجاربها الأولى (ص ٤١ ـ ٤٤)، بينما يأتي حديث الطالب عن التساوي في التلوُّث

١ ـ وهي إشكالات ناتجة عن اختلاف تاريخ بعض الأحداث من راوٍ إلى آخر، كما هو الوضع بالنسبة إلى تاريخ زيارة فؤاد لجانين في المستشفى. ففي حين يشير فؤاد في رسالته إلى الطالب إلى أنّ الزيارة الأولى جرت في ٦ أو ٧ آب (ص ٢٤٢)، وأنّ الثانية تمّت بعد ذلك بأيام، وبالتحديد في ١٠ آب (ص ٢٤٢ و٢٤٣)، تؤكّد مذكراتُ جانين دون لبس أنّ الزيارة الأولى وقعتْ في ٧ آب (ص ٢٧٤) والثانية في ٨ آب (ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥). ويمكن في هذا الإطار إدراجُ اختلاف آخر قائم بين وصول رسالة فؤاد إلى الطالب بعد تاريخها المثبت فيها («باريس، ١١ آب» ص ٢٤٢) بأيام ـ هي تلك التي يقتضيها انتقالها من باريس إلى بيروت ـ وترجيح النصّ الروائيّ وصولها في ٩ آب (راجع ص ٢٣٤ ـ ٢٤٠ و٢٤٢).